

أبعاد القسم البلاغية في كتب التفسير: (دراسة تفسيرية بلاغية)

The Rhetorical Dimensions of Oaths in the Qur'an in Books of Exegesis: (A Rhetorical-Exegetical Study)**Dr. Qasim Azzam Bhutta***Assistant Professor, Department of Arabic, NUML Islamabad**Email: qabhutta@numl.edu.pk***Dr. Farah Naz***Assistant Professor, Department of Arabic, NUML Islamabad**Email: Farah.naz@numl.edu.pk***Abstract**

This study explores the rhetorical dimensions of oaths in the Qur'an as presented in classical and modern works of exegesis. It aims to uncover the rhetorical purposes behind Qur'anic oaths, examining how they function within the broader context of divine discourse. The research analyzes selected Qur'anic verses that contain oaths, focusing on their stylistic, semantic, and persuasive roles, and how exegetes have interpreted their meanings and implications. The study adopts a descriptive-analytical approach, drawing on major tafsīr sources to highlight the diversity of scholarly opinions regarding the significance of oaths. It demonstrates that Qur'anic oaths are not merely stylistic embellishments, but serve profound communicative purposes, such as affirmation, emphasis, magnification of the sworn object, and directing the reader's attention to universal truths and signs of divine power. Furthermore, the research sheds light on the relationship between the oath and its جواب (response), emphasizing the coherence and unity of Qur'anic expression. It concludes that understanding the rhetorical dimensions of oaths enhances the appreciation of Qur'anic eloquence and contributes to a deeper comprehension of its message.

Keywords: Qur'anic Oaths, Rhetoric, Tafsīr (Qur'anic Exegesis), Balāghah (Arabic Rhetoric), Divine Discourse, Emphasis, Stylistic Analysis, Semantic Functions, Persuasion, Qur'anic Studies

التمهيد

يُعدّ أسلوب القسم من أبرز الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، إذ ورد في مواضع متعددة ليؤدي وظائف دلالية عميقة تتجاوز مجرد التوكيد إلى أبعاد معنوية وبلاغية متعددة. وقد حظي هذا

الأسلوب باهتمام كبير من قِبل المفسرين، الذين سعوا إلى الكشف عن أسرارهِ، وبيان علاقته بالسياق القرآني، وما يحمله من دلالات ترتبط بالقسم به والمقسم عليه... وتكمن أهمية هذا الموضوع في كونه يجمع بين التفسير والبلاغة، مما يتيح فهماً أعمق للنص القرآني، ويكشف عن جانب من إعجازه البياني. ويهدف هذا البحث إلى دراسة أبعاد القسم البلاغية في القرآن الكريم، كما عرضتها كتب التفسير، مع تحليل نماذج تطبيقية تُبرز هذه الأبعاد. افتتح القرآن الكريم كثيراً من السور القرآنية بالقسم، وأورد أقساماً في ثنايا عدد غير قليل منها، وأسلوب القسم في اللغة العربية من المؤكّدات المشهورة، التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة، فمنهم الشاك، ومنهم المنكر، ومنهم الخصم الألد، فجاء القسم في كتاب الله، لإزالة الشكوك، وإحباط الشبهات، وإقامة الحجة، وتوكيد الأخبار، لتطمئن نفس المخاطب إلى الخبر، لا سيما في الأمور العظيمة التي أقسم عليها.

لقد أقسم الله بمخلوقاته مع نهيهِ عن القسم بغيره، للإشارة إلى أن هذه المخلوقات، ما هي إلا آيات يستنير بها أولوا الأبواب في مناهج الاستدلال على وجود الصانع الحكيم، ولتصحيح العقائد الباطلة، فالقسم بالنجم إذا هوى وأمثال ذلك، فيه رد على من اعتقدوا ألوهية الكواكب، وللفت الأنظار إلى الكون وما يحويه من حقائق وأسرار، ونظام بديع محكم، ولتقرير أن الكتاب الذي جاء به رسول الله ﷺ - منزل من عند الله، وأن الله تكفل بحفظه من التبديل، والتحريف، والنقص، والزيادة، وأنه كتاب هداية، ينير البصائر والأبصار، لتهتدي إلى أقوم طريق أسلوب القسم في اللغة، طريق من طرق توكيد الكلام، وإبراز معانيه ومقاصده على النحو الذي يريده المتكلم، إذ يؤتى به لدفع إنكار المنكرين، أو إزالة شك الشاكين. والقسم من المؤكّدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، ومعلوم أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، وعلى أسلوب كلامهم، ومناحي خطابهم، وكان من عادتهم أنهم إذا قصدوا توكيد الأخبار وتقريرها، جاءوا بالقسم، وعلى هذا جاءت في القرآن الكريم أقسام متنوعة، في مواضع شتى، لتوكيد ما يحتاج إلى التوكيد.

مفهوم القسم في القرآن الكريم

يُعدّ القسم من الأساليب البلاغية البارزة في اللغة العربية، وقد احتلّ مكانة متميزة في القرآن الكريم لما يحمله من دلالات عميقة وأغراض بيانية رفيعة. فالقسم في أصله اللغوي يعني الحلف، ويُقصد به توكيد الكلام وتعزيزه بذكر أمرٍ عظيم يُستشهد به على صدق القول. وعندما تنتقل إلى القرآن الكريم، نجد أن هذا الأسلوب قد استُخدم بصورة دقيقة ومقصودة لتحقيق أهدافٍ متعددة تتصل بالهداية والإقناع والتأثير. يتميز القسم في القرآن الكريم بخصوصية فريدة، إذ إنّ المقسم هو الله سبحانه وتعالى، وهو العليم الحكيم، الذي يُقسم بما يشاء من مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته. فنجد القسم بالشمس، والليل،

والفجر، والسماء، وغيرها من الظواهر الكونية، كما في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾، وقوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾. ولا يأتي هذا القسم عبثاً، بل يحمل في طياته دعوة للتأمل في هذه المخلوقات، واستحضار ما فيها من دلائل القدرة الإلهية. ويتكوّن القسم في القرآن من عناصر أساسية، هي: المقسم، وهو الله تعالى؛ والمقسم به، وهو الشيء الذي يقع به الحلف؛ والمقسم عليه، وهو القضية التي يُراد تأكيدها. وغالباً ما يكون المقسم عليه من القضايا الكبرى في العقيدة، كإثبات وحدانية الله، أو صدق الرسالة، أو حقيقة البعث والجزاء. وهذا يدل على أن القسم وسيلة لتثبيت هذه الحقائق في نفوس المخاطبين، وخاصة أولئك الذين كانوا يُكرونها أو يشكّون فيها ومن الناحية البلاغية، يؤدي القسم في القرآن وظائف متعددة، فهو أولاً أداة قوية للتوكيد، يُرسّخ المعنى ويُزيل الشك. كما أنه يُسهّم في لفت انتباه السامع وإثارة تفكيره، حيث يُقدّم المقسم به غالباً في صورة مدهشة أو ذات دلالة عميقة، مما يدفع المتلقي إلى التأمل. كذلك يحمل القسم بعداً تعظيماً، إذ يُبرز مكانة المقسم به، ويُشير إلى ما فيه من أسرارٍ وعبر.¹

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، حيث جاء القسم بالعصر للدلالة على أهمية الزمن، وخطورة ضياعه، ثم أُكِّد الخبر بخسران الإنسان. وكذلك قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وفيه قسم بحياة النبي ﷺ، وهو من أعظم صور التكريم والتعظيم.

ولا يقتصر القسم في القرآن على كونه وسيلة لغوية، بل يتجاوز ذلك إلى كونه أداة تربية وإيمانية، تُسهّم في بناء وعي الإنسان، وربطه بآيات الله في الكون،² وتوجيهه إلى التفكير والتدبر. كما يُظهر هذا الأسلوب جانباً من إعجاز القرآن الكريم في البيان، حيث يجمع بين قوة التأثير ودقة التعبير وجمال الأسلوب.

تعريف القسم عند البلاغيين وعند المفسرين

أولاً: القسم عند البلاغيين

القسم في اصطلاح البلاغيين هو: أسلوب إنشائي يُؤتى به لتوكيد الخبر وتقويته، وإزالة الشك أو الإنكار من نفس السامع، ويكون غالباً بحرف من حروف القسم مثل: الواو، الباء، التاء، أو بألفاظ تدل عليه مثل: أقسم، أحلف. ويرى البلاغيون أن القسم من أقوى أساليب التوكيد في العربية؛ لأنه يجمع بين التعظيم للمقسم به وتقوية المعنى المقسم عليه، فيؤدي وظيفة إقناعية وتأثيرية في الخطاب.³

ثانيًا: القسم عند المفسرين

القسم عند المفسرين هو: إخبار الله تعالى أو المتكلم بالقسم على أمرٍ ما لتأكيد صدقه وعظم شأن المقسم عليه، وهو في القرآن الكريم يأتي لتحقيق أغراض عقدية وبيانية، مثل تأكيد العقيدة (كالبعث والقرآن) لفت الانتباه إلى عظمة المقسم به (كالسما، والشمس، والفجر) تعظيم المقسم عليه وإثبات ويؤكد المفسرون أن قسم الله تعالى ليس حاجة إلى التوكيد، بل هو لتشريف المقسم به وتنبيه العباد على أهميته ودلالته، كما يذكرون أن المقسم به في القرآن يحمل دلالات تدبرية مرتبطة بالآيات الكونية أو الشرعية.⁴

البلاغيون: ينظرون إلى القسم بوصفه أسلوبًا لغويًا للتوكيد والتأثير.

المفسرون: ينظرون إليه بوصفه أسلوبًا قرآنيًا له أغراض عقدية وبيانية وتربوية.

والأقسام التي جاء بها القرآن الكريم على ضربين

الضرب الأول: ما ورد على طريق الحكاية

في ضمن ما قصه القرآن من قصص المخلوقين، كقوله تعالى حكاية لقول إبراهيم - عليه السلام - لقومه -: (تالله لأكندن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين)⁵ وكقوله سبحانه مخبرًا عما كان يقوله كفار مكة، قبل بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم)⁶ وهذا الضرب من القسم كثير في القرآن.⁷

الضرب الثاني : ما أقسم الله تعالى به، وهذا على نوعين

النوع الأول : القسم المضمّر، وهو القسم المحذوف، المدلول عليه بجوابه المقرون باللام، كقوله تعالى "لتبلون في أموالكم وتسمع من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا".⁸ تقديره والله لتبلون وتسمع، بدلالة الجواب المقرون باللام أو المدلول عليه بالمعنى والسياق، كقوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) ، أي : والله ما من كافر إلا وارد النار، بدلالة المعنى والسياق، لأن هذه الآية جاءت بعد آيات مؤكّدة بالقسم الملفوظ، وهو قوله تعالى (فوربك لنحشرنهم والشیاطین ثم لنحضرنهم حول جهنم جثیا . ثم لننزعن من كل شیعة أيهم أشد على الرحمن عتیا . ثم لنعلم بالذین هم أولى بما صلیا) فدل القسم الملفوظ على القسم الملحوظ، وهذا النوع من القسم كثير في القرآن كذلك.⁹

النوع الثاني : القسم الظاهر، وهو الملفوظ، وهو ما سيكون عليه مدار هذا البحث

يُعدّ أسلوب القسم من الأساليب البلاغية البارزة في القرآن الكريم، إذ يُوظف لتأكيد المعاني وترسيخها في نفس المتلقي، وإبراز أهمية القضايا التي يعالجها الخطاب القرآني. ومن بين أنواع القسم في

القرآن، يبرز ما يُعرف بـ القسم الظاهر، وهو الذي يُذكر فيه لفظ القسم وأداته صراحةً دون حذف أو تقدير، فيأتي واضحاً مباشراً يؤدي غايته البلاغية بأقوى صورة. يقوم القسم الظاهر على التصريح بأداة القسم¹⁰، مثل: الواو، والباء، والتاء، مع ذكر المقسم به بوضوح. وتُعدّ الواو أكثر أدوات القسم وروداً في القرآن الكريم، حيث تأتي في مطالع كثير من السور، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾، وقوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾. وفي هذه الأمثلة يظهر القسم جلياً، إذ تتقدم الواو على المقسم به، الذي يكون غالباً من الظواهر الكونية الدالة على عظمة الخالق. أما الباء فتأتي أقل استعمالاً من الواو، وغالباً ما تدخل على لفظ "رب"، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، حيث يُقسم الله سبحانه بنفسه الكريمة، فيكون في ذلك غاية التوكيد والتعظيم. وكذلك تأتي التاء أداةً للقسم، لكنها نادرة الاستعمال، وغالباً ما تختص بلفظ الجلالة، كما في قوله: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، وهو قسم ورد على لسان إخوة يوسف عليه السلام، ويحمل دلالة قوية على الاعتراف واليقين. ومن الخصائص الأساسية للقسم الظاهر أنه لا يكتفي بذكر أداة القسم والمقسم به، بل يتبعه غالباً جواب القسم، وهو الغاية المقصودة من القسم، ويكون مؤكداً بأدوات التوكيد مثل اللام، وقد وإن. وهذا الترابط بين القسم وجوابه يعكس البناء المحكم للنص القرآني، ويظهر مدى العناية بإيصال المعنى بأقوى درجات التأثير.¹¹

وتتجلى الأهمية البلاغية للقسم الظاهر في كونه وسيلةً فعّالة لتأكيد الحقائق الكبرى، سواء كانت عقدية أو أخلاقية أو كونية. كما أنه يسهم في جذب انتباه السامع، وإثارة تفكيره في المقسم به، الذي يكون غالباً من آيات الله في الكون، مما يدفع إلى التأمل في دلالاتها وعلاقتها بالمقسم عليه. ومن هنا، فإن القسم لا يأتي مجرد توكيد لفظي، بل يحمل أبعاداً دلالية عميقة تربط بين الظواهر الكونية والحقائق الإيمانية. وخلاصة القول، فإن القسم الظاهر في القرآن الكريم يُعدّ من أقوى الأساليب البيانية التي تُبرز إعجاز النص القرآني، حيث يجمع بين وضوح التعبير، وقوة التأثير، وعمق الدلالة. وهو يعكس جانباً من جماليات البيان القرآني.¹²

أولاً: مفهوم القسم وعناصره

أسلوب القسم من الأساليب المهمة التي عرفها الناس منذ زمن القديم في تعدد اللغات فقد انتشر هذا الأسلوب عند العرب ما انتشر عند غيرهم من الأمم فأستخدموه في الأخبار والوعود والعهود والمواثيق وغير ذلك مما يستلزم توكيد الأمر لشؤون الأفراد والجماعات، ولهذا الأسلوب مصطلحات كثيرة عند العلماء فمثلاً: القسم أو الأقسام، والحلف واليمين، والشهادة، والعهد، والعقد، وغيرها، فقد خصّ النحاة لهذا التوكيد في تسمية الأبواب النحوية بمصطلح القسم والحلف واليمين واستعملوا في

دراساتهم الألفاظ المختلفة لقوة الكلام مثل: شهد وعلم وعهد، وفيها يوجد عندهم دلالة القسم ووضعوا أسلوب القسم في باب المجرورات لأن الأثر الإعرابي الذي تحدثه حروف القسم وهو الجر.

وعند العلماء مصطلحات كثيرة لهذا الأسلوب باعتبار دلالة التوكيد وخاصة دلالتها على النسق اللغوي الخاص الذي يفيد معنى التوكيد فالقسم بفتح فسكون يدل في اللغة على تجزئة الشيء.¹³ وقال ابن منظور: "القسم بالتحريك: اليمين ، وكذلك المقسم ، وهو المصدر مثل المخرج ، والجمع أقسام، وقد أقسم بالله واستقسمه به وقاسمه: خلف له"¹⁴ وابن الفارس يقول قائلاً: "والقسامة: اليمين ، يقال: قتل فلان فلانا بالقسامة ، أي باليمين"¹⁵ وهذا هو أصل تسمية القسم عند أكثر أهل اللغة. وعند النحاة القسم أحد الأساليب المؤكدة للكلام كما قال سيبويه: "اعلم أن القسم توكيد لكلامك"¹⁶ ويعتبر ابن سيده: أنه "يمين يقسم بها الحالف ليؤكد بما شيئاً يخبر عنه من إيجاب أو جحد"¹⁷

"والغرض من هذا التوكيد إزالة الشك عن المخاطب بتوكيد الخبر في النفي والإثبات فالقسم عند النحاة فهو جملة يجاء بها لتوكيد جملة أخرى." ¹⁸ ويبين أبو علي الفارسي "لأنه خبر جيئ به لتوكيد خبر آخر ويسبب هذا جاءت جملته على جهة ما تكون عليه الأخبار فكما ان الجمل التي هي أخبار تكون من الفعل والفاعل ، والمبتدا والخبر ، كذلك كانت الجملة التي هي قسم على هذين الوجهين"¹⁹

حروف القسم للربط

(الباء والواو والتاء) هذه الحروف الثلاثة تستخدم للقسم الجارة لتصل معنى القسم إلى مقسم به كما تأتي الباء للربط والاتصال ما قبلها إلى ما بعدها لأن فعل القسم لا يربط بنفسه إلى المقسم به وهذه الحروف القسمية الثلاثة وردت أكثر حروف القسم في كلام العرب للربط والاتصال كما بينه سيبويه: "أنك إذا قلت: بالله ووالله وتالله فإنما أضفت الحلف إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنك إذا قلت : مررت بزيد ، فإنما أضفت الحلف إلى الله سبحانه وتعالى." ²⁰ و العرب استخدموا هذه الحروف القسمية كثيرة في كلامهم ، وما جاءت غيرها في القرآن الكريم وهذه الحروف الثلاثة هنا ذكرها بالتفصيل حرفاً حرفاً.

أ_ الباء:

"هي الأصل في القسم لأنها حرف الجر الذي يعد به الحلف و تدخل على المضمر كما تدخل على المظهر فتقول: (بالله لأقومن وبه لأفعلن)."²¹

"وتتميز عن باقي حروف القسم بثلاثة أمور هي:

1. جواز إثبات فعل القسم وفاعله مع الباء أو حذفهما نحو: (أقسم بالله لأجتهدن ، أو بالله لأجتهدن) أما مع غير الباء فيجب حذف فعل القسم وفاعله.

2. يجوز أن يكون المقسم بالباء اسماً ظاهراً أو ضميراً بارزاً نحو: رب الكون لأعملن على نشر الإسلام، أما غير الباء فلا يجوز إلا الظاهر.

3. يجوز أن يأتي القسم استعطافاً

وهو الذي يكون جوابه جملة انشائية تحيي بعد جملة القسم لتحريك النفس و إثارة شعورها.²²

بـ الواو

أما الواو فهي يستعمل كثيراً من حروف القسم الأخرى مثلما يقول سيويه:

"وللقسم والمقسم به أدوات في حروف الجر وأكثرها الواو"²³

"وتدخل على الإسم الظاهر فقط"²⁴

نحو قوله تعالى ((والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى وما خلق الذكر والأنثى إنّ سَعِيكم لَشئى))²⁵

وقوله تعالى ((والتّين والزيتون))²⁶

وقال ابن سيده: " تدخل في صلة الأفعال في القسم وغيرها فأختاروا الواو في الإستعمال لإنفرادها بالقسم"²⁷

"ولا يذكر فعل القسم مع الواو فلا يجوز أن يقال: (أقسم واللّه لأفعلن) ، ولا تُستعمل الواو للقسم الاستعطائي فلا نقول (والله أخبرني) كما نقول (بالله أخبرني)."²⁸

جـ التاء:

"أما لا تدخل إلا على لفظ الجلالة (الله)"²⁹

مثل قوله تعالى: "(تالله لقد آثرك الله علينا)"³⁰

وذكر الأخفش: "أما تدخل على (الرب) مثل (تربي)."³¹

وهي تستخدم مثل الواو في حذف فعل القسم معها ولا تستعمل في الاستعطاف ولا تدخل

على المضمر.³²

ربط جواب القسم المثبت بالقسم

1_ وردت القسم بالواو في قوله تعالى

﴿ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللّٰهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾³³

وردت في هذه الآية المباركة القسم وهو من الذين أشركوا يوم القيامة والمخاطب به هو الله

عز وجلّ ويقول الله سبحانه وتعالى عن المشركين يوم القيامة حين يحشرهم مع آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دونه.

ويذكر الزمخشري عن معنى الفتنة فيقول: "أَنَّ معنى الفتنة هنا هو الكفر أو الكذب ، فيروا مكان حزيهم وحسرتهم فتنَّتُهُمْ كفرهم والمعنى: ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم، وقاتلوا عليه وافتخروا به ، وقالوا دين آبائنا إلا جحوده والتبرؤ منه ، والحلف على الانتفاء من التدين به ويجوز أن يراد به: ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا فسَمِيَ فتنةً ، لأنه كذب." ³⁴ وعند أبي حيان دلالة القسم في هذه الآية المباركة هو التأكيد ويقول: "لم يكن حبُّهم للأصنام وإِعْجَابُهُمْ وَإِتِّبَاعُهُمْ لها سُبُلًا عنها وَوَقَفُوا على عَجْزِها إلا التَّبَرُّؤُ منها والإنكار لها ، وفي هذا توبيخ لهم كما تقول لرجلٍ كان يدَّعي مَوَدَّةَ آخر ثم انحرَفَ عنه وعاداهُ يا فلانُ لم تكن مَوَدَّةُكَ لفلانٍ إلا ان عاديتُهُ وباتتُهُ والمعنى على ثم لم تكن بمعنى مَوَدَّتِهِمْ وإِعْجَابِهِمْ بالأصنام إلا البراءة منهم باليمين المؤكِّدة لِبرائَتِهِمْ." ³⁵ وجاءت هذه الآية المباركة بقوله: "((ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ)) والفتنة أصلها الإختبار، من قولهم: فتن الذهب إذا اختبر خلوصه من الغلث." ³⁶ ثم يفسِّر أبو حيان عن الفتنة ويقول: "وتَكُونُ الفتنة واقعةً في الدنيا وشرحت أيضاً بالإختبار والمعنى: ثم لم يكن اختبارنا إيَّاهم إذ السُّؤال عن الشركاء وتوقيفهم اختبار لإنكارهم الإِشراك وتكونُ الفتنة هنا واقعةً في القيامة ، أي: ثم لم يكن جواب اختبارناهم بالسُّؤال عن شركائهم إلا انكار التشريك." ³⁷ ويبيِّن محي الدين: "الواو حرف قسم وجر، ولفظ الجلالة مجرور بالواو ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف تقديره: (نقسم) ، وربنا بدل أو نعت ل (الله) ، وجملة القسم في محل نصب مقول قولهم ، وما نافية ، وكان اسمها ، ومشركين خبرها." ³⁸ وفهم من كلام المفسرين والمعرِّبين أَنَّ القسم هنا وردت في سياق سؤال المشركين عن شركهم يوم القيامة حيث يقسمون إجابة على هذا السؤال أنهم ما كانوا مشركين أي أنهم ينفون الشرك عن أنفسهم في الدنيا. وبعض المفسرين يعدُّون هذا القسم في موقف تحير ودهشة كما يقول ابن عاشور: "تحتل الفتنة أن تكون بمعنى اضطراب الرأي والحيرة في الأمر ، ويكون في الكلام إيجاز والتقدير: فافتتنوا في ماذا يُجيبون ، فكان جوابهم أن قالوا ((والله ربنا ما كنَّا مشركين)) فَعَدَلَ عَنِ الْمُقَدَّرِ إِلَى هَذَا التَّرْكِيبِ لِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ جَوَابَهُمْ ذَلِكَ هُوَ فِتْنَتُهُمْ لِأَنَّهُ أَثَرُهَا وَمَظْهَرُهَا." ³⁹

2_ وقوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ⁴⁰

يذكر الزمخشري في تفسيره لهذه الآية المباركة: "أن هذه الآية الكريمة تبدأ بقوله تعالى (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ) وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال ، كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاتبه. وقيل: وقفوا على جزاء ربهم ، وهذا تعيين من الله تعالى لهم على التكذيب أي ما زال بهم التكذيب إلى حسرتهم وقت مجيء الساعة." ⁴¹ وجاءت التعبير ب (وقفوا) أي: حبسوا ، بصيغة الماضي تأكيداً لهذا المعنى ، والتعبير ب (إذا) يبيِّن عن تحقق وقوع هذا الأمر وتأكيد حدوثه ، وفي هذا سؤال الله

تعالى لهم لأنهم كفروا به ، وقسمهم على صدقه ، و هذا التعبير يشير إلى أنهم سيعترفون بما كفروا وكذبوا به في الدنيا ، بل سيقسمون على ذلك برهم.⁴²

ويقول ابن عاشور: "وتعليق على رَّهْم ب وَفَّقُوا تَمَثُّلٌ لِحُضُورِهِمُ الْمَحْشَرِ عِنْدَ الْبَعْثِ. شَبَّهَتْ حَالَهُمْ فِي الْحُضُورِ لِلْحِسَابِ بِحَالِ عَبْدٍ جَنَى فَقُبِضَ عَلَيْهِ فَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ ، وَبَذَلَتْ تَظْهَرُ مَرِيَّةُ التَّغْيِيرِ بِلَفْظِ رَّهْمٍ دُونَ اسْمِ الْجَلَالَةِ." ⁴³ فهو يضيف القول ويقول: "وَالْإِشَارَةُ إِلَى الْبَعْثِ الَّذِي عَايَنُوهُ وَشَاهَدُوهُ. وَالْإِسْتِفْهَامُ تَقْرِيرِيٌّ دَخَلَ عَلَى نَفْيِ الْأَمْرِ الْمُقَرَّرِ بِهِ لِاخْتِبَارِ مِقْدَارِ إِقْرَارِ الْمَسْئُولِ، فَلِذَلِكَ يَسْأَلُ عَنْ نَفْيِ مَا هُوَ وَاقِعٌ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ لَهُ مَطْمَعٌ فِي الْإِنْكَارِ تَذَرَعُ إِلَيْهِ بِالنَّفْيِ الْوَاقِعِ فِي سُؤَالِ الْمُقَرَّرِ. وَالْمَقْصُودُ: أَهَذَا حَقٌّ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَزْعُمُونَهُ بَاطِلًا. وَلِذَلِكَ أَجَابُوا بِالْخَرَفِ الْمَوْضُوعِ لِإِبْطَالِ مَا قَبْلَهُ وَهُوَ بَلَى فَهُوَ يُبْطَلُ النَّفْيُ فَهُوَ إِقْرَارٌ بِوُقُوعِ الْمُنَى، أَيْ بَلَى هُوَ حَقٌّ، وَأَكْذَبُوا ذَلِكَ بِالْقَسَمِ تَحْقِيقًا لِاعْتِرَافِهِمْ لِلْمُعْتَرَفِ بِهِ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ لِلَّهِ تَعَالَى، أَيْ نَقَرُوا وَلَا تَشْكُ فِيهِ فَلِذَلِكَ نُقَسِمُ عَلَيْهِ. وَهَذَا مِنْ اسْتِعْمَالِ الْقَسَمِ لِتَأْكِيدِ لَازِمِ فَائِدَةِ الْخَبَرِ." ⁴⁴

وهذا هو ما ذكره الزمخشري أيضاً بعد أن يقفوا هذا الموقف يوجه إليهم هذا السؤال " أليس هذا بالحق ؟ وهو استفهام يراد به تغييرهم على التكذيب." ⁴⁵ ويذكر أبو حيان وجهاً في اختيار القسم بالرب هنا ويقول:

" وَأَكْذَبُوا جَوَابَهُم بِالْيَمِينِ فِي قَوْلِهِمْ وَرَبَّنَا وَهُوَ إِقْرَارٌ بِالْإِيمَانِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ وَنَاسَبَ التَّوَكُّيدُ بِقَوْلِهِمْ وَرَبَّنَا صَدَرَ الْآيَةِ فِي وَفَّقُوا عَلَى رَّهْمٍ وَفِي ذِكْرِ الرَّبِّ تَذَكُّارٌ لَهُمْ فِي أَنَّهُ كَانَ يُرَبِّيهِمْ وَيُصْلِحُ حَالَهُمْ، إِذَا كَانَ سَيِّدُهُمْ وَهُمْ عَبِيدُهُ، لَكِنَّهُمْ عَصَوْهُ وَخَالَفُوا أَمْرَهُ." ⁴⁶ ويذكر الإمام الرازي اعترافهم بكونه حقاً ويقول: "إِنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَّ أَنَّهُ إِذَا قَالَ لَهُمْ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا الْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِكَوْنِهِ حَقًّا مَعَ الْقَسَمِ وَالْيَمِينِ." ⁴⁷

ويذكر أبو السعود سر صدور هذا الاعتراف عنهم مؤكداً بالقسم: " أكدوا اعترافهم باليمين إظهاراً لكمال يقينهم بحقيقته وإيداناً بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط طمعاً في نفعه." ⁴⁸

المبحث الثاني: ربط جواب القسم غير المثبت بالقسم

1_ ووردت القسم في القرآن الكريم مسبوقه ب (لا) كما في قوله تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ⁴⁹

ويقول الزمخشري: "أن لا الأولى زائدة والمعنى: فوربك ، فوربك كقوله تعالى (فوربك لننسألنهم) وفائدتها تأكيد معنى القسم ، كما زيدت في قوله تعالى (لَقَدْ يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ) لتأكيد

وجود العلم ، ولا يُؤْمِنُونَ جواب القسم فإن قلت: هلا زعمت أنها زيدت لتظاهر (فلا) في: (لا يُؤْمِنُونَ) قلت: يأتي ذلك استواء النفي والإثبات فيه، وذلك قوله: (فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ).⁵⁰ وتعقب الالوسي ما ذهب اليه الزمخشري في قوله: "إذا وقعت (لا) في خلال الكلام كقوله (فلا وربك لا يؤمنون) فهي صلة تزداد لتأكيد القسم ، وإذا جاءت ابتداء كما في سورتي القيامة والبلد فهي للنفي ، لان الصلة انما تكون في وسط الكلام."⁵¹

ويقول أبو حيان: "وأقسم بإضافة الرب إلى كاف الخطاب تعظيماً للنبي صلى الله عليه وسلم، ثم استأنف القسم بقوله: وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ، وقال غيره قَدْماً لَا عَلَى الْقَسَمِ اهتماً بالنفي، ثم كررها بعد تأكيداً للتهم بالنفي، وَلَا يُؤْمِنُونَ جَوَابُ الْقَسَمِ ، (فَإِنْ قُلْتَ) : هَلَا زَعَمْتَ أَنَّهَا زِيدَتْ لِتُظَاهَرَ لَا فِي. لَا يُؤْمِنُونَ (قُلْتَ): يَأْتِي ذَلِكَ اسْتِوَاءُ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ فِيهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ:⁵² ((فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ))."⁵³ وقيل: إن "لا" الثانية زائدة ، والأولى على أصلها ، والقسم معترض بينها وبين النفي . "فهكذا نرى عند الزمخشري (لا) الأولى زائدة لتأكيد معنى القسم ، ولم يجوز الزمخشري أن تكون (لا) في هذا الموضع مزيدة لتأكيد المنفي بعدها ، لأنها جاءت القسم مثله أيضاً في القرآن الكريم فيما كان جوابه مثبتاً نحو قوله تعالى ((فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)) فهو يمنع أن تستعمل "لا" المزيدة هنا موطئة مؤكدة للنفي الذي بعدها في هذه الآية المباركة ، وأن تكون مؤكدة لمعنى القسم الذي جاء جوابه مثبتاً ، ولا يلزم في ذلك اطراد معنى واحد لأن بين موضعين فرقاً..و لكن عند بعض المفسرين أن تقديم "لا" على القسم بحرف النفي يدل على لبيان قوته وتأكيده للنفي ، ويجوز حذف (لا) الثانية ، والإهتمام بتقديم الأولى ، ويصح حذف الأولى ، ويبقى معنى النفي ، ويذهب معنى الإهتمام ، ومنهم أبي حيان.⁵⁴ ويوافق معه في هذا الرأي السمين الحلبي.⁵⁵ وفي هذه الصورة تكون "لا" الأولى إشعاراً بقوة النفي والإهتمام به ، والثانية مؤكدة لذلك الإشعار والإهتمام. ويوافق المفسرون الكثيرون مع الزمخشري في رأيه ومنهم الإمام النسفي وهو يقول " {فلا وربك} أى فوربك كقوله فوربك لنسألهم ولا مزيدة لتأكيد معنى القسم وجواب القسم: { لَا يُؤْمِنُونَ } ."⁵⁶

ويقول الطاهر ابن عاشور هذه الآية الكريمة مشتملة على: " أَهَمُّ فَعَلُوا مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَهَمُّ مُؤْمِنُونَ، فَكَانَ الزَّعْمُ إِشَارَةً إِلَى انْتِفَاءِ إِيمَانِهِمْ، ثُمَّ أُزْدِفَ بِمَا هُوَ أَصْرَحُ وَهُوَ أَنَّ أَفْعَالَهُمْ تُنَافِي كَوْنَهُمْ مُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: لَا يُؤْمِنُونَ، وَأَكَّدهُ بِالْقَسَمِ وَبِالتَّوَكُّيدِ اللَّفْظِيِّ ، وأصل الكلام: فو ربك لا يؤمنون، والعرب تأتي بحذف النفي قبل القسم إذا كان جواب القسم منفيًا للتعجيل بإفادته أن ما بعد حرف العطف قسم على النفي لما تضمنته الجملة المعطوف عليها، فتقديم ، وهو يعبر عن "لا" في بداية الآية ويقول "

وَلَيْسَتْ (لا) هَذِهِ هِيَ الَّتِي تَرِدُ مَعَ فِعْلِ الْقَسَمِ مَزِيدَةً وَالْكَلَامُ مَعَهَا عَلَى الْإِثْبَاتِ، نَحْوُ: ⁵⁷ "لَا أُقْسِمُ" ⁵⁸ وَفِي غَيْرِ الْقَسَمِ نَحْوُ:

"إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ" ⁵⁹ "لَأَنَّ تِلْكَ لَيْسَ الْكَلَامُ مَعَهَا عَلَى النَّفْيِ، وَهَذِهِ الْكَلَامُ مَعَهَا نَفْيٌ، فَهِيَ تَأْكِيدٌ لَهُ عَلَى مَا اخْتَارَهُ أَكْثَرُ الْمُحَقِّقِينَ خِلَافًا لِصَاحِبِ الْكُشَافِ ، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ مَوَاقِعَ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ مُتَّحِدَةً فِي الْمَوَاقِعِ الْمُتَقَارِبَةِ." ⁶⁰ فهو يوافق مع أبو حيان في رأيه. ويقول أحمد مصطفى درويش: "قوله ((فلا وربك لا يؤمنون)) الفاء استثنائية ولا مزيدة لتأكيد القسم والواو وحرف قسم وجر والجار والمجرور متعلقان بمحذوف تقديره: ((أقسم)) ، و ((لا يؤمنون)) لا نافية ويؤمنون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وجملة لا يؤمنون لا محل لها من الإعراب لأنها جواب القسم." ⁶¹

الأبعاد البلاغية للقسم في القرآن الكريم

القسم في القرآن الكريم من الأساليب البلاغية الرفيعة التي تتجاوز مجرد التوكيد إلى أداء وظائف دلالية وجمالية عميقة، مما يجعله عنصراً أساسياً في بناء الخطاب القرآني. فهو لا يأتي اعتباطاً، بل يُوظف بدقة لبخاطب العقل والوجدان معاً، ويؤدي دوراً حجاجياً وتأثيرياً في آنٍ واحد. ومن خلال التأمل في الآيات القرآنية، تتجلى الأبعاد البلاغية المتعددة لهذا الأسلوب، والتي تسهم في إبراز إعجاز القرآن وثرائه التعبيري. الأبعاد البلاغية للقسم في القرآن الكريم موضوع غنيّ يجمع بين البلاغة والتفسير، لأن القسم في القرآن ليس مجرد تأكيد، بل أداة فنية تحمل دلالات عميقة ومتعددة. يمكن توضيح هذه الأبعاد في مستويات متكاملة.

أولاً: البعد التوكيدي (التقريبي)

أول هذه الأبعاد هو البعد التوكيدي، حيث يُستخدم القسم لتثبيت الحقائق الكبرى التي قد يثيرها الشك في نفوس المخاطبين، خاصة في القضايا العقدية مثل التوحيد والبعث والرسالة. فحين يقسم الله تعالى بمخلوقاته، فإن ذلك يُكسب القضية المقسم عليها قوةً في الإثبات، ويزيل عنها مظنة التردد. ومن ثمّ، يصبح القسم وسيلة لإقرار الحقيقة في ذهن المتلقي بصورة لا تحتل الإنكار. ⁶² ويرز كذلك البعد التعظيمي، إذ إن اختيار المقسم به في القرآن الكريم ليس عشوائياً، بل يرتبط غالباً بمظاهر كونية عظيمة كالشمس والقمر والسماء والليل والنهار. وهذا الاختيار يُضفي على القسم طابعاً من الهيبة والجلال، ويوجّه نظر الإنسان إلى عظمة الخالق من خلال عظمة مخلوقاته، فيتحوّل القسم إلى مدخل للتأمل في الكون واستحضار دلائل القدرة الإلهية. أما البعد التصويري، فيتجلى في قدرة القسم على خلق مشاهد حية في ذهن المتلقي، خاصة عندما يرتبط بعناصر الطبيعة المتحركة. فالقسم بالليل إذا

يغشى والنهار إذا تجلى، مثلاً، لا يقتصر على التوكيد، بل يرسم صورة متقابلة بين الظلام والنور، مما يعمق المعنى ويمنحه بعداً جمالياً وإيحائياً. وهكذا يصبح القسم وسيلة فنية تُثري النص وتمنحه حيوية خاصة. ومن جهة أخرى، يؤدي القسم دوراً نفسياً مؤثراً، إذ يلفت انتباه السامع ويثير فضوله لمعرفة ما سيأتي بعده، أي جواب القسم. وهذا التشويق يهيئ النفس لتلقي الرسالة، ويجعلها أكثر استعداداً للتأثر بها. كما أن تكرار القسم في بعض المواضع يعزز هذا الأثر ويزيد من قوة الانتباه والتركيز.. ولا يغيب عن القسم بعده الحجاجي، حيث يُستخدم لإقامة الدليل على صدق القضايا التي يعرضها القرآن، خصوصاً في مواجهة المنكرين. فالقسم هنا ليس مجرد تأكيد، بل هو حجة قائمة بذاتها، تربط بين ما هو مشاهد محسوس (كالمخلوقات الكونية) وما هو غيبي مُراد إثباته، مما يعزز الإقناع ويقوي البرهان. ومن الناحية التركيبية، يشكل القسم عنصراً بنائياً مهماً في النص القرآني، إذ يتكون من أداة القسم، والمقسم به، وجواب القسم. وقد يُحذف جواب القسم أحياناً، وهو حذف مقصود يزيد من عمق الدلالة، إذ يدفع القارئ إلى استنتاج الجواب بنفسه، فيتفاعل مع النص بصورة أعمق.⁶³

دور القسم في توكيد المعاني و أمثلة قرآنية وتحليله

البعد البلاغي (الباقى/الإيحائي) كما في قوله تعالى ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾⁶⁴ يُعَدُّ أسلوباً القسم في هذه الآيات من سورة الضحى نموذجاً رفيعاً للبيان القرآني، حيث لا يقتصر أثره على توكيد المعنى الظاهر، بل يمتد إلى ما يُسميه البلاغيون “البعد الباقي” أو الإيحائي، وهو الأثر النفسي والدلالي المستمر الذي يرسخ في نفس المتلقي بعد تلقي النص. ويظهر هذا البعد من خلال التناسب الدقيق بين المقسم به (الضحى والليل) وجواب القسم (نفي الهجر والقليل).. أول ما يلفت النظر هو التقابل بين الضحى والليل؛ فالضحى يرمز إلى النور والانشراح، بينما الليل إذا سجد يدل على السكون والهدوء. وقد أشار محمود بن عمر الزمخشري في الكشف إلى أن هذا التقابل ليس اعتباطياً، بل هو توطئة دلالية لما بعده، إذ يُفهم منه أن تعاقب النور والظلمة سنة كونية، وكذلك تعاقب أحوال النفس والوحي. ومن هنا يتشكل البعد الباقي: أن الفتور الطارئ لا يعني الانقطاع الدائم، بل هو مرحلة عابرة ضمن نظام إلهي حكيم. كما يتجلى هذا البعد في الانسجام النفسي والإيقاع الهادئ الذي تخلقه ألفاظ الآية، خاصة في قوله: ﴿إِذَا سَجَى﴾؛ إذ تحمل كلمة “سجى” دلالة السكون العميق، وهو ما يعزز الإحساس بالطمأنينة. وقد بين فخر الدين الرازي في التفسير الكبير أن اختيار هذه الألفاظ يسهم في نقل المتلقي من القلق إلى السكينة، وهو أثر يتجاوز حدود المعنى الظاهري إلى تأثير نفسي دائم.

ومن أبرز مظاهر البعد الباقي أيضاً إضافة الربوبية إلى النبي ﷺ في قوله: ﴿رَبُّكَ﴾، إذ تفيد القرب والتشريف، لا مجرد الإخبار. وقد أشار محمد الطاهر بن عاشور إلى أن هذا التعبير يُنشئ علاقة خاصة بين الله تعالى ونبيه، فيبقى أثرها في النفس بوصفها علاقة عناية ورعاية مستمرة، لا تنقطع بعارض زمني.

كذلك يظهر البعد الإيحائي في أسلوب النفي اللطيف ﴿مَا وَدَّعَكَ وَمَا قَلَى﴾، حيث نُفي التوديع (الترك مع توديع) ونُفي القلى (البغض)، وهو نفي مزدوج يجمع بين دفع توهم الغياب ونفي البغض معاً. وهذا الأسلوب - كما يذكر ابن قيم الجوزية في التبيان في أقسام القرآن - يرسّخ في النفس معنى المحبة الإلهية، لا مجرد استمرار الاتصال. وخلاصة القول: إن البعد الباقي في هذه الآيات يتمثل في تحويل القسم من مجرد وسيلة توكيد إلى تجربة شعورية متكاملة، حيث تتضافر الصورة الكونية (الضحى والليل) مع الأسلوب اللغوي (النفي والإضافة) لإنتاج أثر دائم في النفس، يقوم على الطمأنينة، واليقين باستمرار العناية الإلهية، ونفي كل مظاهر الهجر أو القطيعة.⁶⁵

والبعد البلاغي (الباقي/الإيحائي) في قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾⁶⁶ تُعدّ هذه الآية من سورة العصر مثلاً بالغ الدقة على تداخل التوكيد البلاغي مع البعد الإيحائي (الباقي)، حيث لا يقف أثر القسم عند تثبيت معنى الخسران، بل يتجاوز ذلك ليشيئ تصوّراً وجودياً عميقاً عن علاقة الإنسان بالزمن. يبدأ النص بالقسم: ﴿وَالْعَصْرِ﴾، والعصر هو الزمن الممتد الذي يضم حياة الإنسان وأعماله. وقد بيّن محمود بن عمر الزمخشري في الكشف أن اختيار "العصر" دون غيره من الأزمنة يحمل دلالة على عظم شأن الوقت، إذ هو الوعاء الذي تقع فيه أفعال الإنسان، ومن ثم ترتبط به نتائجها. فالقسم هنا لا يُقصد به مجرد التأكيد، بل استحضار قيمة الزمن بوصفه شاهداً على الإنسان. يأتي جواب القسم: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، وهو مؤكد بعدة أدوات (إن + اللام)، ما يدل على خطورة القضية. غير أن البعد الباقي لا يتوقف عند هذا التوكيد، بل يظهر في الصورة البلاغية الكامنة في التعبير؛ إذ صوّر الإنسان كأنه "غارق" في الخسران (باستعمال "في")، لا مجرد متصف به. وقد أشار فخر الدين الرازي إلى أن هذا الأسلوب يُشعر بالإحاطة والتمكّن، مما يعمّق الإحساس بالخطر. ومن أبرز أبعاد الإيحاء في هذه الآية العلاقة الخفية بين المقسم به والمقسم عليه؛ فالزمن (العصر) بطبيعته يمضي ولا يعود، وكذلك عمر الإنسان يتناقص باستمرار. وقد أكّد محمد الطاهر بن عاشور أن هذه العلاقة تولّد في نفس المتلقي إدراكاً دائماً بأن كل لحظة تمرّ هي جزء من رأس مال الإنسان الذي يتآكل، وهو ما يشكّل البعد الباقي: شعور مستمر بخطورة التفريط في الوقت. كما يتجلّى هذا البعد في الإيجاز الشديد؛ فالسورة بأكملها قصيرة جداً، ومع ذلك تحمل حكماً كلياً على الإنسان بالخسران. هذا الإيجاز

— كما يذكر ابن قيم الجوزية — يُحدث أثرًا قويًا، إذ يترك فراغًا تأويليًا يدفع المتلقي إلى التأمل والتفكير، فيبقى المعنى حاضرًا في الذهن مدة طويلة.⁶⁷

وخلاصة التحليل أن البعد الباقي في هذه الآية يتمثل في تحويل الزمن من مجرد ظرف إلى عنصر حاكم على مصير الإنسان ترسيخ صورة الإنسان الغارق في الخسران إثارة وعي دائم بقيمة الوقت وخطورته، وبذلك يصبح القسم أداة لا لتأكيد الحكم فحسب، بل لبناء رؤية وجودية كاملة تبقى آثارها في النفس، وتوجه سلوك الإنسان عبر الزمن.

دور القسم في البعد التعظيمي و أمثلة قرآنية وتحليله

كما في قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ القسم هنا لا يهدف إلى التوكيد فقط، بل إلى إظهار عظمة الخلق الإلهي وإثارة التأمل في هذا النظام الكوني المهيّب. السماء بما فيها من نجوم ومجرات وبروج فلكية تمثل نظامًا كونيًا بالغ الدقة والاتساع. ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ يأتي القسم في القرآن الكريم بوصفه أحد أبرز الأساليب البلاغية التي تحمل أبعادًا دلالية متعددة، من أهمها التعظيم، والتصوير الكوني، وبناء الإيحاء العقدي. وتُعدّ آية: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ نموذجًا بليغًا يجمع بين هذه الأبعاد في تركيب مكثف شديد الدلالة أتى هذه الآية في مطلع سورة البروج، حيث يفتتح الخطاب الإلهي بالقسم بالسماء ذات البروج، تمهيدًا لعرض قضية عظيمة تتعلق بأصحاب الأخدود. وهذا الافتتاح ليس عشوائيًا، بل هو اختيار مقصود لتوجيه ذهن المتلقي نحو مشهد كوني مهيب قبل الدخول في الحدث الإنساني أتى هذه الآية في مطلع سورة البروج، وهي من أقوى نماذج القسم القرآني الذي يجمع بين التعظيم، والتصوير الكوني، وبناء المعنى العقدي في آنٍ واحد.

ثالثًا: البعد التصويري والجمالي للقسم في القرآن الكريم عند المفسري

يحمل القسم صورًا فنية مؤثرة تُضفي على النص القرآني جماليًا وإيقاعًا خاصًا، خاصة في السور المكية القصيرة، ويُعدّ القسم في القرآن الكريم من أبرز الأساليب البلاغية التي تكشف عن الإعجاز البياني للقرآن، إذ لا يقتصر دوره على توكيد المعنى فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى بناء صور فنية مؤثرة تلامس الوجدان وتثير التأمل. ومن أجمل الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾⁶⁸ فقد وقف المفسرون عند هذه الآيات متأملين ما تحمله من أبعاد تصويرية وجمالية، حيث رسمت ألفاظ القسم مشهدًا كونيًا هادئًا يجمع بين إشراق الضحى وسكون الليل، في تناسق فني بديع يخدم مقصد السورة في تسليّة النبي ﷺ وتطمين قلبه. يرى أبو القاسم الزمخشري أن القسم بالضحى والليل الساجي يقوم على مقابلة فنية جميلة بين حالتين متضادتين؛ فالضحى يرمز إلى النور والحركة

والحياة، بينما يشير الليل إذا سجد إلى السكون والهدوء والاستقرار. وهذا التضاد بين الإشراق والسكون يمنح النص جمالاً تصويرياً خاصاً، كما أن اختيار لفظة «سجد» بدلاً من ألفاظ أخرى مثل «أظلم» أو «اشتد ظلامه» يحمل إحاءً نفسياً لطيفاً يتناسب مع جو السورة الهادئ. وقد أشار الزمخشري إلى أن انسجام الصوت مع المعنى يُعد من دقائق البلاغة القرآنية، فجرس الكلمة نفسه يوحى بالسكون والطمأنينة⁶⁹. أما فخر الدين الرازي فقد ربط بين المشهد الكوني والمعنى النفسي للسورة، موضحاً أن هذه الآيات جاءت في فترة انقطاع الوحي عن النبي ﷺ، فشعر بالحزن والقلق، فجاء القسم بالضحي والليل ليهيئ جواً نفسياً مفعماً بالراحة والسكينة قبل قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ فالضحي هنا يرمز إلى النور بعد الظلمة، كما أن الليل الساجي يوحى بالهدوء الذي يعقب التعب، ومن ثم فإن الصورة الكونية تخدم الغرض النفسي والتربوي للسورة، وتُشعر المتلقي بالطمأنينة والأمان. وقد توسع سيد قطب في إبراز الجانب الفني في هذه الآيات، فرأى أن السورة ترسم لوحة شفافاً هادئة تتداخل فيها الأضواء والظلال في انسجام موسيقي مؤثر. فالضحي بما يحمله من إشراق ولطف، والليل بما فيه من سكون وهدوء، يخلقان جواً وجدانياً رقيقاً ينسجم مع رسالة السورة القائمة على المواساة والتسليّة. كما أشار إلى الموسيقى الداخلية للألفاظ، مثل: «الضحى»، «سجد»، «قلَى»، حيث تتألف الأصوات في نغمة هادئة تُحدث أثراً نفسياً عميقاً في النفس. ومن خلال هذه التفسيرات يتبين أن القسم في القرآن الكريم يؤدي وظيفة جمالية وتصويرية عظيمة؛ فهو لا ينقل المعنى بصورة مباشرة فقط، بل يحوله إلى صورة حية نابضة بالحركة والشعور. كما يظهر التناسق الدقيق بين الألفاظ والمعاني والإيقاع الصوتي، مما يكشف عن جانب من الإعجاز الفني في القرآن الكريم.⁷⁰

رابعاً: البعد النفسي والتأثير في القرآن الكريم عند المفسرين

يمتاز القرآن الكريم بأنه خطاب إلهي جامع، لا يقتصر على إقناع العقل بالأدلة والبراهين، بل يتجاوز ذلك إلى التأثير العميق في النفس الإنسانية، فيحرك الوجدان، ويوقظ الضمير، ويهذب المشاعر، ويقود الإنسان إلى السلوك القويم. ويُعدّ هذا الجانب النفسي أحد أبرز وجوه الإعجاز البياني في القرآن الكريم. وقد اهتم المفسرون عبر العصور ببيان هذا الأثر النفسي عند تفسيرهم للآيات، موضحين كيف يخاطب القرآن القلب والعقل معاً.

مفهوم البعد النفسي في القرآن الكريم

يقصد بالبعد النفسي في الخطاب القرآني: الأثر الداخلي الذي تُحدثه الآيات في نفس الإنسان من مشاعر الخوف أو الرجاء أو الطمأنينة أو الخشوع أو الرهبة، بحيث يؤدي ذلك إلى تغيير في السلوك

والتوجه. القسم يجذب انتباه السامع ويهيئه لتلقي الخير المهم، فيزداد التأثر والانتباه لما بعد القسم. كما جاء في قوله تعالى

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ إذ يُحدث القسم أثراً قوياً في النفس ويزيل الشك. وقد عبّر المفسرون عن هذا المفهوم بألفاظ متعددة مثل: ترقيق القلب، إيقاظ الضمير، زجر النفس، بعث الطمأنينة، وتحريك الوجدان، مما يدل على إدراكهم العميق لكون القرآن مؤثراً في البنية النفسية للإنسان.

وسائل القرآن في التأثير النفسي عند المفسرين

أولاً: أسلوب التخويف والترهيب

يُعَدُّ الترهيب من أهم الوسائل التي يستخدمها القرآن لإحداث أثر نفسي قوي يردع الإنسان عن المعصية. ومن أبرز أمثله قوله تعالى ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾⁷¹ تُصَوِّر هذه الآية مشهداً شديداً التأثير للنار وهي تشتعل وتتأجج، مما يخلق حالة من الخوف الداخلي. وقد بيّن المفسرون هذا الأثر؛ فالطبري يرى أن الآية جاءت للإنذار والزجر الشديد، بينما يوضح الرازي أن هذا التصوير البياني يولّد انفعلاً نفسياً قوياً يمنع الإنسان من الإقدام على المعصية. كما يشير القرطبي إلى أن هذا النوع من الوعيد يهدف إلى ردع القلب قبل الجسد.

ثانياً: أسلوب الطمأنينة وبعث السكينة

في مقابل التخويف، يقدم القرآن خطاباً نفسياً مريحاً يبعث الطمأنينة في القلب، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾⁷² تشير هذه الآية إلى أن القلب لا يجد سكينة الحقيقية إلا في ذكر الله، مما يحقق التوازن النفسي للإنسان.

وقد ذكر القرطبي أن الطمأنينة هي سكون النفس وزوال القلق، بينما يوضح ابن كثير أن القلب لا يستقر إلا بذكر الله. وفي التفسير المعاصر Tafsir al-Manar يؤكد محمد رشيد رضا أن الذكر ليس عبادة فقط، بل هو علاج نفسي فعال للاضطراب الداخلي والقلق الوجداني.

ثالثاً: التصوير البياني للمشاهد المؤثرة

يعتمد القرآن على التصوير الفني الذي يجعل المعاني غاية في الحيوية، وكأنها مشاهد تُرى بالعين. ومن ذلك قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرَوْهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾⁷³ هذا المشهد يصوّر حالة الهلع يوم القيامة بحيث تنسى الأم طفلها من شدة الفزع، وهو تصوير بالغ التأثير في النفس. وقد أشار الزمخشري إلى أن هذا الأسلوب يجعل السامع كأنه يشاهد الحدث أمامه، بينما يرى الرازي أن هذا النوع من التصوير يخلق دهشة نفسية.⁷⁴

نتائج البحث

فيما يلي تفصيل أعمق لأهم نتائج البحث حول الأبعاد البلاغية للقسم في كتب التفسير - دراسة بلاغية تفسيرية.

اتساع الدلالة البلاغية للقسم القرآني

أثبت البحث أن القسم في القرآن الكريم لا يقتصر على معنى التوكيد اللغوي فقط، بل يتسع ليشمل عدة أبعاد بلاغية متداخلة، أهمها:

- التعظيم: تعظيم المقسم به مثل (والفجر، والضحى، والعصر).
- التشويق والإثارة الذهنية: جذب انتباه المتلقي قبل ذكر جواب القسم.
- الإنذار والتنبية: توجيه المخاطب إلى قضية عظيمة أو حقيقة غيبية.
- الإقناع الحجاجي: دعم المعنى بالدليل البلاغي بدل الدليل الحسي.
- بيّن الدراسة أن المفسرين يؤكدون أن فهم القسم لا ينفصل عن السياق، حيث يختلف المعنى البلاغي باختلاف السورة والمقام. يُفهم جواب القسم من خلال السياق العام للآيات.
- تنوع مناهج المفسرين في تحليل القسم
- أظهر البحث اختلافاً منهجياً واضحاً بين المفسرين:
- الطبري: يميل إلى التفسير اللغوي والنقلي مع بيان المعنى العام.
- الزمخشري: يركز على البلاغة والإعجاز البياني والدلالات الجمالية.
- الرازي: يوسع البعد العقلي والنفسي والفلسفي للقسم.
- ابن عاشور: يجمع بين البلاغة والمقاصد الشرعية والتحليل السياقي.

خلاصة القول أنّ الأبعاد البلاغية للقسم في القرآن الكريم في كتب التفسير يُعدّ القسم في القرآن الكريم من أبرز الأساليب البلاغية التي تتجلى فيها عظمة البيان القرآني وعمق تأثيره في المتلقي، إذ لا يقتصر دوره على مجرد التوكيد اللغوي للمعاني، بل يتجاوز ذلك ليؤدي وظائف بلاغية ونفسية وعقدية متكاملة. وقد اهتمت كتب التفسير القديمة والحديثة بهذا الأسلوب اهتماماً كبيراً، حيث سعت إلى الكشف عن أسرار ودلالاته في سياق الآيات القرآنية. تُظهر نتائج هذا البحث أن القسم في القرآن الكريم يأتي أولاً بوصفه وسيلة قوية للتوكيد، خاصة عند تناول القضايا الغيبية والعقدية الكبرى مثل البعث والجزاء والوحي. وقد بيّن المفسرون، كالإمام الطبري والقرطبي والرازي، أن القسم في القرآن يُستخدم لتثبيت المعنى في النفس وإزالة الشكوك، مما يمنح الخطاب القرآني قوة إقناعية عالية. ومن جهة أخرى، يتجلى البعد التصويري والجمالي في القسم القرآني من خلال اختيار ألفاظ المقسم به، والتي غالباً ما

تكون من مظاهر الكون مثل الليل والفجر والشمس والضحى. هذه الصور الكونية لا تأتي اعتباطاً، بل تحمل دلالات عميقة تشير إلى قدرة الخالق وعظمة النظام الكوني، كما تخلق مشاهد جمالية حية في ذهن القارئ تجعل المعنى أكثر رسوخاً وتأثيراً. أما من الناحية النفسية، فإن أسلوب القسم يؤدي دوراً مهماً في شدّ انتباه السامع وإثارة شعوره بالرهبة والتعظيم، حيث يُهيئ النفس لتلقي الخبر المؤكد بعد القسم. وقد أشار المفسرون إلى أن تكرار القسم في بعض السور يضاعف من هذا الأثر النفسي ويعمّق الإحساس بعظمة الرسالة الإلهية. كما يبرز البعد العقدي والإيماني للقسم في كونه وسيلة لتأكيد الحقائق الإيمانية الكبرى، مع الإشارة إلى أن الله تعالى يقسم بما يشاء من مخلوقاته، بينما يُنهى الإنسان عن الحلف بغير الله، مما يعكس مبدأ التوحيد في العقيدة الإسلامية. ويلاحظ أيضاً تنوع أساليب القسم في القرآن بين القسم الصريح والمكرر والمتنوع داخل السورة الواحدة، وهو ما يدل على ثراء الأسلوب القرآني ومرونته في التعبير عن المعاني المختلفة. وقد اعتمد المفسرون في تفسيرهم لهذا الأسلوب على التحليل اللغوي والسياقي والربط بين المقسم به والمقسم عليه، مما كشف عن عمق دلالاته البلاغية. وفي ضوء ذلك، يمكن القول إن القسم القرآني يمثل بناءً بلاغياً متكاملًا يجمع بين التوكيد، والجمال، والتأثير النفسي، والبعد العقدي، وهو ما يعكس جانباً من جوانب الإعجاز البياني في القرآن الكريم. وبذلك يتضح أن دراسة هذا الأسلوب في كتب التفسير تكشف عن ثراء النص القرآني وعمق مقاصده البلاغية والتربوية.

الهوامش

¹ التبيان في إيمان القرآن، ص 5 - 15

² ص 3 - 6 السياق البلاغي لأسلوب القسم في النص القرآني

³ القزويني، الخطيب - الإيضاح في علوم البلاغة

الموضع: في مباحث الإنشاء الطلبي → باب القسم تقريباً: ص 90-110 (بحسب طبعة دار الفكر).

⁴ الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل 4 / 735

⁵ سورة الأنبياء: آية / ٥٧.

⁶ ٤٢ سورة فاطر: آية /

⁷ ص: 25 أسلوب القسم في القرآن الكريم دراسة بلاغية

- ⁸ سورة آل عمران الآية : 186
- ⁹ ص: 25 أسلوب القسم في القرآن الكريم دراسة بلاغية
- ¹⁰ البرهان في علوم القرآن - بدر الدين الزركشي
- دار المعرفة، بيروت 3/ 39 - 45
- ¹¹ الإتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي
- دار الفكر، بيروت . / 108 - 105 5
- ¹² 290 - 292 مباحث في علوم القرآن
- ¹³ - أنظر معجم مقاييس اللغة مادة (قسم) 86/5
- ¹⁴ - لسان العرب لابن منظور (مادة قسم) الطبعة الأولى 2006 (دار صبح و إديسوفت) 3228/5
- ¹⁵ - تهذيب اللغة لابن فارس مادة (قسم) 423 /8
- ¹⁶ - الكتاب لسيبويه 104/3
- ¹⁷ - المخصص 110/13
- ¹⁸ - أنظر شرح المفصل لابن يعيش 90/9
- ¹⁹ - المسائل العسكرية لأبي علي الفارسي تحقيق ودراسة الدكتور محمد الشاطر أحمد محمد أجمد ، القاهرة - مطبعة المدني الطبعة الأولى 1403هـ - 1982م ، ص 123
- ²⁰ - الكتاب لسيبويه 421/1
- ²¹ - أنظر الأساليب الإنشائية في النحو العربي لعبد السلام محمد هارون الطبعة الخامسة مكتبة الخانجي بالقاهرة
- 2001 ص 162
- ²² - النحو الوافي لعباس حسن الطبعة الثالثة دار المعارف بمصر 2/ 497
- ²³ - الكتاب لسيبويه 496 /3
- ²⁴ - أنظر التبصرة والتذكرة للصيميري تحقيق الدكتور فتحي مصطفى علي الدين ، مكة المكرمة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، بجامعة أم القرى ، الطبعة الأولى 1402 هـ ، 445/1
- ²⁵ - سورة الليل ، الآية: 1
- ²⁶ - سورة التين ، الآية: 1
- ²⁷ - المخصص لابن سيده ، بيروت - المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بدون تاريخ 110 /13
- ²⁸ - أنظر شرح الكافية للرضي 334/2
- ²⁹ - أنظر الكتاب لسيبويه 496/3
- ³⁰ - سورة يوسف ، الآية: 91

- 31 - أنظر شرح جمل الزجاجي لابن عصفور الإشبيلي تحقيق الدكتور صاحب أبو جناح ، بغداد - وزارة الأوقاف والشؤون الدينية 1400 هـ ، 524/1
- 32 - أنظر شرح المفصل لابن يعيش 9 / 101
- 33 - سورة الأنعام ، الآية: 23
- 34 - الكشف للزمخشري 12/2
- 35 - البحر المحيط في التفسير 4 / 464
- 36 - التحرير والتنوير لابن عاشور 7 / 175
- 37 - البحر المحيط في التفسير 4 / 464
- 38 - أعراب القرآن وبيانه لحي الدين بن أحمد مصطفى درويش ، دار اليمامة - دمشق - بيروت الطبعة الرابعة 1415 هـ 84/3
- 39 - التحرير والتنوير لابن عاشور 1 / 175
- 40 - سورة الأنعام الآية : 30
- 41 - الكشف للزمخشري 2 / 16
- 42 - المصدر السابق 2 / 16
- 43 - التحرير والتنوير لابن عاشور 7 / 187
- 44 - نفس المصدر 7 / 187
- 45 - الكشف للزمخشري 2 / 13
- 46 - البحر المحيط في التفسير 4 / 481
- 47 - مفاتيح الغيب للرازي 12 / 512
- 48 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 3 / 124
- 49 - سورة النساء ، الآية: 65
- 50 - الكشف للزمخشري 1 / 527
- 51 - روح المعاني 29 / 171
- 52 - البحر المحيط في التفسير 3 / 694
- 53 - سورة الحاقة ، الآية: 69
- 54 - أنظر البحر المحيط في التفسير 3 / 694
- 55 - أنظر الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 4 / 19
- 56 - أنظر الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 4 / 19

- 57 - التحرير والتنوير لطاهر ابن عاشور 110/5
- 58 - سورة القيامة ، الآية : 1
- 59 - سورة الحديد: الآية: 29
- 60 - التحرير والتنوير لطاهر ابن عاشور 110/5
- 61 - اعراب القرآن وبيانه 249/2
- 62 ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، دار الكتب العلمية، ص7
- 63 نفس المرجع
- 64 سورة الضحى ، الآية: 1 - 3
- 65 محمود بن عمر الزمخشري، الكشف عن حقائق التنزيل، ج4، ص: 746.
- وفخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج31
- 66 سورة العصر، الآية: 1 - 3
- 67 محمود بن عمر الزمخشري، الكشف عن حقائق التنزيل، ج4، ص: 780، و فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج32، ص: 85، ومحمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص: 531 وابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص: 102.
- 68 - سورة الضحى، الآية: 1-2
- 69 - الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ج4، ص768.
- 70 - الرازي، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج31، ص203.
- 71 - سورة الليل: الآية14
- 72 - سورة الرعد: الآية 28
- 73 - سورة الحج: 2
- 74 - الطبري، محمد بن جرير ،جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، من أقدم وأهم كتب التفسير بالمأثور ، والزمخشري، محمود بن عمر الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، والرازي، فخر الدين مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) 2/ 223.